صور من الحياة

سماوية ...
... وأرضية

كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى
(قرآن كريم)

للأستاذ كامل محمود حبيب

يا أيها الجبار ، خفف الوطء ، فما أنت سوى ثرى يمشي على ثرى ، وما هذا اللقب الذي تفخر به سوى سبة الذل والضعة انسمت بها لأنك تعبدت - في غير رجولة - لرجل من الناس ، وما هذا المال الذي تعتز به سوى لعنات الفقير تنصب عليك أبداً لأنك استلبته في غير شفقة - من مساك الروح !

يا أيها الجبار ، لقد عميت فجذبك الثرى الأرضي إليه لتكون أرضيا في نوازعك ترتدغ في الوحل ، ولتطردك روحانية السماء من نورها ومن رحمتها في وقت معاً !

هذا صاحبي رجل فيه الرجولة والإنسانية ، وفيه الكرامة والترفع ، وفيه الإباء والإيمان ؛ فهو قد شب ونما واشتد غرسه في ظلام القرية ، وترعرع واستد رأيه في كنف الدين . وهو من بيت فيه القناعة والرضا ، يسمو عن النوازع الوضيعة بالقناعة ويتنسم روح الجنة في الرضا ، لا تشغله حاجات العيش عن معاني المجد ، ولا تصرفه صوارف الحياة عن نور اليقين . والحياة في أعماق القرية لا تدفع إلى طمع ولا تغري بجشع ؛ فاطمأن صاحبي إلى رزق ضيق وإيمان واسع ، وهدأ إلى بيت خاو وقلب عامر ؛ وانطوت الأيام . . .

وأحس صاحبي بدوم الشباب الحار يتدفق في عروقه ويفور ، فانطلق إلى فتاة من ذوي قرابته يخطبها لنفسه فما رفض أبوها ولا تمنعت أمها ، فإذا هو زوج إلى جانب زوجة رفيقة طيعة . وراح الرجل - كدأبه أبداً - يتسلل من الدار كل صباح - لدى الفجر - إلى الجامع يبتغي أن يتجرد ساعة من أرضيته الثقيلة لتحلق روحه الطاهرة - حيناً - في سفاء السماء تطلب المدوء والسكينة ، وتسأل العطف الإلهي الذي يتراءى لها في صورة طفل يملأ الدار مرحاً وبهجة ويعمم القلب فرحاً وسروراً . وانتظر الرجل الهبة الإلهية طويلا طويلا انتظار طويلا في غير جدوى

ولم يستطع الشيطان أن يتسرب إلى قلب الرجل الوديع فينفث فيه الأسى واليأس ، أو يوسوس له بالشر لأنه لم يرزق طفلاً ، فصبر ... صبر والزوجة الباسلة تحس خواطر قلب زوجها فتتقلب - في صمت - على جمرات من الضيق لأنها تخشى ثورة الرجل الذي أكرمها عاقراً سبع سنوات عجاف . وبدأت نفسها تتفلسف فلسفة الفلاح حين يعلك بالفأس ليجتث أصول الشجرة التي لا تغني بالظل ولا تؤتي الأكل ، فاضطربت وطارعنها القرار لأنها تضن بالحياة الناعمة التي تعهد بها أن تتكفي فتستحيل جحيما أو أن تنفصم عروقها ؛ وتضن بهذه الشمس المشرقة في أرجاء الدار أن تغيب في غمرات اليأس ، وتضن بهذا الرجل الطيب أن يحور وحشاً يفترس ... يفترسها هي في غير ذنب ولا جريرة ؛ فانضمت على أسى وضيق ، ولكنها توجهت بقلبها إلى السماء

وعلى حين فجأة أثمرت الشجرة التي أقفرت عمراً طويلا فأضاء وجه الرجل لمقدم الطفلة وأشرق النور في جنبات قلبه ، وأضاء وجه المرأة وهدأت جائشتها ؛ واستحالت حال الدار فأنعمها البشر وفاض بها السرور . وترقرق الأمل في عصب الرجل ونبضت الهمة في قوته ، فانطلق إلى الحقل يحدوه الرجاء ويدفعه الأمل فأصاب مالا على حين لم ينعل نزعات روحه السماوية

ودرجت الطفلة وشبت ، وإلى جانبها قلب أبيها يفيض بالحنان والرقة ، ويده تفيض بالكرم والسخاء ؛ وهو في عمله يستنفد وسع الطاقة في جد ، ويبذل غاية الجهد في رضا ، ومرت الأيام في هدوء وتيب يدفع الصبية إلى الصحة والنشاط إلى أن بلغت سن الشباب والأنوثة

وفي ذات صباح - وعلى حين غفلة من أهلها - هبت الفتاة لترى الداء يتسرب إلى رقبتها فتتورم ، ورأت الأم ورأى الأب ، فأصابها الفزع . وطار الأب في - في ذعر - إلى حلاق الصحة ... وحلاق الصحة في القرية رجل فرض نفسه ليكون

طبيبا ، يصف الداء ويشرف على العلاج ، فهو يعبث بالأرض كيف يشاء والحكومة في عمى عن أمره ، ويستنزف الصحة والمال ، لا يجد رادعا من نفسه ولا يحس عاطفة من قانون

وجاء حلاق الصحة يداوى علة الفتاة على طريقته التي تتخبط في متاهات الجهل ، ولكن الداء تأبى عليه فما أجدت حيلته ولا أصاب رأيه

وأصاب الأب الهموم والضيق مما تلقى فتاته . فهو لا يرى إلا كاسف البال ، مقطب الجبين ، مضطرب الخاطر

ونفد صبر الرجل من طول ما عانت ابنته فجلس إلى الحلاق يستوضحه خبر المرض الذى عز دواؤه ، ويسأله النصيحة الخالصة بعد أن أجزل له العطاء ، فقال الحلاق « إن في القاهرة طبيبا كبيرا هو سعادة فلان يستطيع أن يحتال للأمر بحياته وبراعته وعلمه ، فاذهب إليه عله يجد عنده شفاء ابنتك »

فقال الرجل « وماذا عسى أن يطلب مني أجر هذا العلاج »

قال الحلاق « أظنه لا يقنع بأقل من عشرة جنيهات »

وانطلق الأب من فوره يهيئ الجنيهات التي يطمع أن يشترى بها صحة وحيدته فما أسفر الصبح حتى كان يصحب ابنته في طريقهما إلى القاهرة يريد أن يمسح عن الفتاة قسوة الداء ، وأن ينفض عن قلبه لفحة الحيرة

وطرق الرجل باب صاحب السعادة الطبيب الكبير فانفتح له ، ووقف الرجل المسكين أمام الطبيب الثرى يشرح له عمر الداء ويتحدث عن لوعته وفزعه ، في صوت يبكى بكاء الأب الملتاع يترجى وحيدته وفي خياله أنه يوشك أن يفقدها وهي بسمة الأمل في ظلمات الحياة . ونور القلب في مضلات العمر . وسمع الطبيب خفقات قلب الرجل وهو ينفض ذات نفسه في ذلة وانكسار فما اهتز له ولا رق ؛ ثم شمخ بأنفه في صلف وكبرياء وهو يقول « هذه العملية لا أرضى فيها بأقل من خمسين جنيها »

ودوت الكلمات في أذنى الرجل الريفى الساذج فارتعدت لها نفسه ومادت به الأرض من هول ما سمع . وذهب يحدث نفسه « خمسين جنيها ؟ خمسين جنيها كاملة ينالها رجل من الناس أجر ما يضع الشرط ثم يرفعه ؟ هذا ظلم وتعسف وجور ... » ثم محا الرجل من ذهوله ونظر إلى الطبيب يحدثه في تضرع وخضوع « ياسيدى ، إن ابنتى هذه هي وحيدتى التي أترجاها ، وهي أمنية العمر وأمل الحياة ، ولقد جاءت في جدب السنين وقفرها لتبذر في قراس الأمل والنشاط ، وتدفع عني عنت اليأس والضيق ، وأنا رجل فقير لا أملك سوى عشرة جنيهات هي لك كلها » فابتسم الطبيب الكبير في سخرية وهو يقول « كلها ؟ كلها ؟ » وفهم الرجل الطيب من الكلمات غير ما يبطن الطبيب ، فقال « نعم ، يا سيدى ، كلها » وسخر الطبيب من عقل الرجل الريفى مرة ومرة ثم سخر مرة أخرى من المبلغ التافه الضئيل الذى يقدمه الرجل ، سخر من هذا المبلغ وهو في نظر الفلاح شيء كبير لأنه يسد الخلة شهورا وشهورا ... سخر الطبيب من الرجل ومن المبلغ ثم قال في جد « لا أقل من خمسين جنيها » وألح الرجل يتوسل في أسلوبه الريفى على حين قد أوصد الطبيب قلبه عن لوعة الأب ، ثم اندفع يهر في الرجل هريرا منكرا وهو يقول « نحن هنا لا نتصدق ! نحن هنا لا نتصدق أيها الجلف ! اخرج ، اخرج فقد أضعت وقتى وجهدى سدى » وخرج الرجل من لدن الطبيب العظيم وقد انكسر خاطره وذوى أمله وتحطم قلبه . خرج وما في مسمعيه سوى صرخات الطبيب العظيم وهو يهوى عواء منكرا « نحن هنا لا نتصدق ... نحن هنا لا نتصدق »

وعجب الرجل أن يكون في الدنيا رجل أرضى يتحدى بأرضيته الوضيعة . وروحانية السماء السامية . فرفع بصره صوب السماء يدعو « إنك أنت ، يا إلهى ، الذى تتصدق علينا جميعا »

وضاقت الأرض في عيني الرجل فلم يجد سعة إلا في المسجد ، في المكان الذى يمسح عن نفس المرء خبث الأرض . وجلس هناك يستجدى ندى السماء حين أغلقت في ناظريه أبواب الأرض . جلس وإلى جانبه ابنته تعاني شدة الضنى وتهكك الرض ووعثاء السفر فأخذتها سنة من النوم ، واندفع هو في تضرعه حتى أرهقته النصب فاستسلم هو أيضا للكرى

ورفت عليهما الرحمة الالهية تهدهد من أشجانهما ومن آلامهما

وفزعت الفتاة من أحلامها - بعد لحظة - تتلمس موضع الورم من رقبتها فإذا هو ينفض ما فيه من دم وقيح ، وأسرعت إلى أبيها توقظه ليمسح عن الجرح ما سال منه وقد سكن الورم